خطبة بعنوان: الكبر

يوم الجمعة: ١٤٤٠/٠٦/١٧هـ لفضيلة الشيخ الدكتور/ عبد العزيز بن أحمد البداح

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا . ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد...

فيا أيها المسلمون... خُلُقٌ ذميم ينافي أصل العبودية لله، فإن العبودية لله تقضي بالتواضع، والتطامن، والخضوع، والإخبات لأمر لله، وأمر رسوله ﷺ، ولعباد الله المؤمنين، والكبر منافٍ لهذا كله.

أيها المسلمون... الكبر أول ذنبٍ عُصي الله تعالى به ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٣٤]. وهو سببٌ للكفر والضلال، فيحمل الكبر المتكبر على رد دعوة الرسل، والكفر بآيات الله ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾[العنكبوت:٣٩]، وهو سببٌ يمنع من وصول العبد إلى الهدى، والتماس الحق والرشاد ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا...﴾[الأعراف:١٤٦]، وهو سببٌ لمقت الله تعالى وبغضه للمتكبر. قال سبحانه عن نفسه: ﴿...إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[النحل:٢٣]، والمتكبر طُبع على قلبه، وخُتم على فؤاده، فلا يصل إليه نور الوحي، ولا ينتفع به﴿...كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر:٣٥]، والمتكبر يرد النصيحة، ويعرض عن الحق، ويحتقر الناس. في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: ((الكبر بطر الحق- يعني دفعه، ورده على قائله-، وغمط الناس- يعني احتقارهم، وازدراؤهم-)) في صحيح مسلم أن رجلًا أكل بشماله عند النبي ﷺ فقال له:((كل بيمنك، فقال: لا أستطيع. فقال: لا استطعت. فما رفعها إلى فيه ما منعه إلا الكبر))، والكبر سببٌ للإعراض عن دعاء الله وسؤاله، والاطِّراح بين يديه، وإظهار الفاقة له ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠]

أيها المسمون... والعبد يحمله على الكبر إما داعٍ، وإما لا يوجد داعٍ لذلك ، فمن الناس من يحمله ماله على الكبر، وشأنه شأن قارون لما غره ماله فقال لقومه: إنما أوتيته على علمٍ عندي فخرج على قومه في زينته معجبًا بماله متبخترًا بحلته ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾[القصص: ٨١]، ومن الناس من يحمله العلم على الكبر والتكبر على الناس، والتعالي عنهم ، وقد سبق إلى ذلك اليهود الذين أُوتوا علومًا، ولم يُؤتَوا فهومًا فشبههم الله عز وجل بالحمار﴿...كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[الجمعة: ٥]، والأصل أن العلم النافع يحمل صاحبه على التواضع لأمر الله، والتطامن لعباد الله، والتذلل للمؤمنين، وتحمل الرياسة على التكبر في الأرض، وسلف في ذلك فرعون فحملته رياسته على التكبر على أمر الله تعالى، والتجبر على عباده ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٤٠]،ويحمل الجاه والشرف والحسب والنسب على التكبر، وسلف في ذلك أبو لهب فما أغنى عنه ما كسب، وأنزل الله فيه قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ* سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[المسد:١-٣]

أيها المسلمون... ومن المخذولين المحرومين من يتكبر من غير داعٍ، وقد ورد في هذا الوعيد الشديد، والنهي الأكيد كما في الصحيح:((ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذابٌ أليم، وذكر منهم عائلٌ مستكبر- يعني فقير مستكبر- ...)). فضاعف الله عقوبته لما لم يكن من داعٍ إلى معصيته، وتكبره.

أيها المسلمون... وفي الآخرة يُعامَل المتكبرون بنقيض ما كانوا عليه في الدنيا، فإذا كانوا في الدنيا يتبخترون في مشيتهم، ويتكبرون على عباد الله المؤمنين ، فقد روى الترمذي أن النبي ﷺ قال: ((يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صورة الرجال يغشاهم الذل من كل مكان)).

أيها المسلمون... والجنة حرامٌ على المتكبرين. جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال:((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر))، والمتكبرون هم أهل النار كما عند البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: ((ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتوٍ جوَّاظٍ مستكبر))، وعند مسلم أن النبي ﷺ قال: ((احتجت الجنة والنار، فقالت النار"فيَّ الجبارون والمتكبرون)).

أيها المسلمون... رأى مُطرِّف بن عبد الله الشخير رجلًا معجبًا بنفسه يتبختر في مشيته، ويتباهى في حلته، فقال له، ووعظه فقال: " أو ما تعرفني ؟ قال: بلى. أولك نطفةٌ مَذِرة، وآخرك جيفةٌ قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة"، وقال أحد السلف : "عجبت لمن يجري في مجرى البول مرتين ثم هو يتكبر".

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، وتقبل الله مني ومنكم تلاوته إنه هو السميع العليم، أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه من كل ذنب إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اعلموا رحمكم الله أن الله أمركم بأمرٍ بدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكته، وثلث بكم أيها المؤمنون فقال جل من قائلٍ عليمًا ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦]

اللهم صل وسلم وزد وبارك على عبدك ورسولك محمد، وارضَ اللهم عن الأربعة الخلفاء الأئمة الحنفاء أبي بكرٍ وعمر وعثمان وعلي، وعن الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بمنك وكرمك وجودك وإحسانك يا رب العالمين.